

معرفة التوحيد لأبي بكر بن علي بن محمد الموصلي الشيباني (ت ٧٩٧هـ/١٣٩٤م) دراسة وتحقيق



د. خالد محمد عبده
جامعة إشبيلية-إسبانيا

ملخص

يتناول المقال تحقيق مخطوط «معرفة التوحيد» للشيخ أبي بكر بن علي الشيباني الموصليّ الدمشقيّ المقدسيّ (ت ٧٩٧هـ/١٣٩٤م)، وهو نصّ صوفيّ يعالج مسألة التوحيد بوصفها تجربة روحية ومعرفية تتجاوز القيود المادية والنفسية، وترتبط بمسار السالك في طريق التصوّف وما يصاحبه من معاناة ومكاشفة ذوقية. يعرض المقال تصوّر المؤلف لمفهوم التوحيد، متتبّعاً منهجه في الامتناع عن تحديده بالعبارة العقلية المباشرة، في ضوء مقولة الشبليّ في قصور اللغة والإشارة عن إدراك حقيقته. كما يفصّل المؤلف مراتب التوحيد بحسب مراتب الوجود والإنسان، من توحيد الجمادات والحيوانات، إلى توحيد العامّة، ثمّ توحيد المرید السالك، وصولاً إلى التوحيد الكامل الجامع بين التوحيد والتعظيم. ويتوقّف عند نقده لمقولة «لا شيء في الوجود إلاّ الله»، وعدّها من ترهات بعض الصوفيّة، كما يناقش تصوّره لمسألة نيل التوحيد وطرق الوصول إليه، مع إبراز اعتماده على أعمال شمس الدين الديلميّ (ت ٥٩٣هـ/١١٩٧م) وتلخيصه لها. ويقدم المقال وصفاً كوديكولوجياً للمخطوط محلّ التحقيق، يتضمّن بيانات النسخة المعتمدة، وطبيعة

مادتها، وخطها، وبنيتها النصية، وما يعترها من تصحيحات. كما يبين منهج التحقيق القائم على مقابلة النسخة وضبط النص، وتخريج النصوص المنقولة، وتوثيق المصطلحات الصوفية، مع التعليق النقدي على المواضع المشككة، وتقديم نص محقق وفق أصول التحقيق العلمي للنصوص التراثية.

مفتتح

حظيت مسألة التوحيد باهتمام كبير في المصنّفات الكلامية والصوفية، وخصّصت لها مصنّفات مستقلة، وممن اعتنوا بذلك شمس الدين الديلمي^(١) (ت. ٥٩٣هـ) في عمله المخطوط **الجمع بين التوحيد والتعظيم**. ورغم عدم اشتها هذا الكتاب إلا أنه كان له أثر واضح في الصوفية العرب والفرس على حدّ سواء، وممن تأثروا به قطب الدين رستم النوري الأردبيلي الإصفهبي (ت ٧٨٠هـ) في كتابه **معيار المريدين**^(٢). وأثر هذا الشيخ في تلامذته من بعده وبصورة خاصة تلميذه عبد الله أبي بكر بن علي الشيباني الموصلّي الدمشقي المقدسي (ت. ٧٩٧هـ)، الذي ألف كتاباً

(١) راجع خالد محمّد عبده، آثار شمس الدين الديلمي المخطوطة، مجلة علوم المخطوط، ع ١٨، ٢٠١٨. ودراسته: عبد الملك الديلمي في الدراسات الاستشراقية وشذرات من تفسيره الصوفيّ Abhath-١، ٦٨، (٢٠٢٠): ٥-٤٦. (٢) ينتمي الإصفهبيّ إلى الطريقة السهروردية الكبروية، وقد تلقن الذكر من الشيخ برهان الدين السمرقندي، وهو من الشيخ عبد الرحمن الكسركي وهو من الشيخ أحمد الكورباني وهو من الشيخ رضي الدين علي بن سعيد لالا، وهو من الشيخ مجد الدين البغدادي. راجع الرسالة المكّية (المكتبة السلیمانية: شهيد باشا علي، رقم ٢٧٦٥) ورقة ٨٨/ب. ومقدّمة كتابه معيار المريدين، (بيروت: كنز ناشرون، ٢٠٢٣).

بعنوان **معرفة التوحيد** لخص فيه ما ورد في أعمال الديلمي^(٣).

تناول الشيخ والتلميذ مسألة التوحيد مؤلّفيهما، تلك المسألة الروحية التي تتعلّق بتحرير الضمير الإنساني من سائر القيود الماديّة والنفسيّة، التي تجسّد امتحان الصوفي وميلاده عبر رحلة طريق ليست بالسهلة، إذ تتخلّلها الآلام والأحزان والوحدة، لكنّها تنتج ثماراً في حياة صاحبها وإدراكاً ذوقياً يبلغه النجاة.

جاء تناول الشيخ الإصفهبيّ لمسألة التوحيد في صورة دفاعية، فبدأ كتابه بذكر الفرق التي غلّطت في الإباحة واللول والاتحاد والتجسيم، والردّ عليهم، وذكر جملة من الأدلة على بطلان اتحاد العبد مع الله تعالى. مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله احتجّب عن أهل السماء كما احتجّب عن أهل الأرض، واحتجّب عن العقول كما احتجّب عن الأبصار، وإنّه تعالى ما حلّ في شيء، ولا غاب عن شيء، وإنّ الملاء الأعلى يطلبون الله كما تطلبونه أنتم»^(٤). وأخذ الإصفهبيّ يشرح الأدلة على طريقة الصوفية القدامى مستنداً إلى عباراتهم وشواهدهم. ثمّ شفّع ذلك بتوضيح لأصول الطريق الصوفيّ وما يجب على السالك أن يعتقد، مخصّصاً بعض فصول كتابه للحديث عن صفات الله، ومسائل الروح. جامعاً ما تناثر

(٣) نصّ الموصلّي على ذلك في مقدّمة كتابه معرفة التوحيد، قائلاً: (فهذا التأليف من مصنّفات المحقّقين من الصوفية، ومعظمه من كتب الشيخ أبي ثابت محمّد بن عبد الملك الديلمي الطوسي). (٤) يتناول هذا الأثر في كتب التصوّف، ويذكر الشعراني أنّ الحكيم الترمذيّ رواه في نوادر الأصول، راجع القواعد الكشفيّة الموضّحة لمعاني الصفات الإلهية (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٦)، ١٣٦.

معرفة التَّوْحِيد وموقعها في تراث المدرسة الكُبراويَّة

يأتي تحقيق رسالة «معرفة التَّوْحِيد» لأبي بكر الموصليّ في سياق البحث عن امتداد مدرسة نجم الدين كُبرى (ت. ٦١٨هـ/ ١٢٢١م) الصُّوفيَّة في البلاد العربيَّة، فقد أظهرت لنا قراءة تحفة البررة في المسائل العشرة لمجد الدين البغداديّ (ت. ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م تقريباً) القيمة العلميَّة والروحيَّة لهذا الكتاب، وما ينطوي عليه من بناء منهجيّ يصلح لتدريس علم التصوف، فضلاً عن صياغته الحوارية التي تعكس طبيعة التلقّي الصُّوفيّ بين الشَّيخ والمُريد^(٦). وقد كان له أثر واضح في كتابات الصُّوفيَّة الذين واصلوا مشروعه الفكريّ، وكان أبرز من مثَّل هذا الامتداد تلميذه نجم الدين دايه الرازيّ (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) صاحب مرصاد العباد، الذي لخص مطالب التحفة وأحال عليها في أعماله العربيَّة والفارسيَّة^(٧). غير أنَّ الوقوف

(٦) يظهر ذلك جلياً في كلمة موجزة قالها علاء الدولة السمنانيّ (ت ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م)، في رسالة الوارد الشارد الطارد شبهة المارد (وإن كنت تشتهي سلوك طريقتهم، فالواجب عليك أن تطالع تحفة البررة في المسائل العشرة، تصنيف الشيخ الشهيد مجد الدين البغداديّ رُوح الله روحه)، Islâm Arařtırmaları Dergisi، ٤٠ (٢٠١٨): ٩٥-١٧٣.

(٧) أورد أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازيّ (نجم الدين دايه) ما يتعلّق بالخلوة نقلاً عن تحفة البررة مصدرًا نقله بهذا النصّ: «وأما خلوة الأربعينيَّة مع الحقّ فلها شرائط وآداب، سنورد شرائطها كما أورد شيخنا السعيد الشهيد الربّانيّ صفوة الله، أبو سعيد شرف الدين المؤيد البغداديّ رضي الله عنه وقدس روحه في الباب الخامس من كتاب تحفة البررة الموسوم به تبرُّكاً بأنفاسه الشريفة وتيمناً بألفاظه اللطيفة». منارات السائرين ومقامات الطائرين (الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٣)، ٤٠٤-٤٢٤. كما نقل نجم الدين دايه فصل السَّماع من تحفة البررة خاتماً نقله بهذا النصّ: «إلى هنا ما ذكره الشَّيخ الشَّهيد رضي الله عنه من كتابه الموسوم بتحفة البررة تيمناً بميامن

في كتب التَّصوِّف ليكون عمله أوَّل كتاب جامع في الرّد على من اتَّخذ التَّصوِّف طريقاً لادّعاء الحلول والاتحاد بالله.

أمَّا تلميذه أبو بكر الموصليّ فقد اتَّخذ طريقاً آخر للحديث عن التَّوْحِيد، يعبر عنه أسلوب الشبليّ حين سأله عن التَّوْحِيد أحد معاصريه: «أخبرني عن توحيد مجرد بلسان حق مفرد. فقال الشبليّ: ويحك! من أجاب عن التَّوْحِيد بالعِبارة فهو ملحدٌ. ومن أشار إليه فهو تُنَوِّي. ومن أومأ إليه فهو عابدٌ وثنٍ. ومن نطق فيه فهو جاهل. ومن سكت عنه فهو غافل. ومن أوهم أنه إليه واصلٌ فليس له حاصلٌ. ومن أومأ أنه قريبٌ فهو منه بعيد. ومن تَوَّجَد فيه فهو فاقد. وكلّ ما ميّزتموه بأوهامكم وأدركنموه بعقولكم في أتمّ معانيكم فهو مَصروفٌ، مردودٌ إليكم، محدثٌ مصنوعٌ مثلكم»^(٥).

فبعد أن قدّم أبو بكر الموصليّ تعريفاً للتوحيد أخذ يفصّل الحديث في أنواع التَّوْحِيد، فهناك توحيد الجَماداتِ والحيواناتِ. وتوحيد الصبيان والمجانين من أولاد المسلمين والكفرة جميعاً. وتوحيد عامّة المسلمين.

وتوحيد المُريد المبتدئ الطالب للحقيقة. ثمّ فصّل الحديث في معنى لا شيء في الوجود إلا الله، وعدّ ذلك (من ترهات مجاهيل الصُّوفيَّة). كما قدّم إجابة عن سؤال كيف يُنال التَّوْحِيد؟ وأشرف طرق الوصول إلى التَّوْحيدات، خاتماً نصّه بالتَّوْحِيد الكامل وهو الجمع بين التَّوْحِيد والتعظيم. معتمداً في ذلك كلّه على أعمال شمس الدّين الدّيلميّ ملخصاً لها.

(٥) راجع عثمان يحيى في مقدّمة تحقيقه لكتاب التجليات الإلهية لابن عربيّ، (القاهرة: الهيئة العامّة للكتاب، ١٩٦٩)، ٧٤.

عند نجم الدين دايه لم يكن كافياً لإظهار الامتداد التاريخي والفكري لمدرسة البغدادي ونجم الدين كُبرى، مما استدعى تتبع آثارها في القرنين السابع والثامن الهجريين. وفي هذا السياق تيسر الاطلاع على معيار المریدین لقطب الدين الإصفيهذي، وهو نصّ يتميّز بإفراد مسألة الحلول والاتحاد بالتصنيف، وينشر أفكار مجد الدين البغدادي في المجالين العربي والهندي، كما تشهد بذلك كثرة النسخ الخطية لمؤلفات الإصفيهذي في خزائن المخطوطات الهندية، وترجمة علماء الهند لكتاباتة، فضلاً عن تلخيص السيوطي لها واهتمام الطريقة التيجانية بها^(٨). ومن هنا كانت قراءة معيار المریدین تمهيداً للكشف عن امتداد المدرسة الكُبراوية في الأقاليم الإسلامية المختلفة. وأظهرت قراءة نصّ الإصفيهذي تأثره العميق بأفكار شمس الدين الديلمي، إذ تبين عند المقارنة أنه لخص كثيراً من مطالب كتبه وضمنها عمله دون الإشارة إليها. ومن ثمّ كان تتبع تلاميذ الإصفيهذي خطوة لاحقة، حيث تبين أن أبرزهم أبو بكر الموصلي، لخص أعمال الديلمي في التوحيد في رسالة مستقلة سماها «معرفة التوحيد». وتُنشر هذه الرسالة بوصفها

كلماته الشريفة وإشاراته اللطيفة متبركاً بنتائج أنفاسه العزيزة، ليكون الكتاب بطراز فوائده مطرّزاً. منارات السائرين ومقامات الطائرين، ٥١٥-٥٤٦.

(٨) نصّ السيوطي في عمله تأييد الحقيقة العلية وتشبيد الطريقة الشاذلية على الاستفادة من كتاب معيار المریدین، ونقل عنه نصوصاً مطوّلة، كانت هذه النقول تأكيداً على تداول الكتاب في الوسط الصوفي في القرن العاشر الهجري، ولعلّ السيوطي ينقله هذا كان سبباً في العناية بكتاب معيار المریدین من قبل الصوفية في بلاد المغرب. راجع السيوطي، الأعمال الكاملة في التصوف الإسلامي، تحقيق عبد الخالق محمود، وأحمد جمعة، (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ٢٠١١)، ١٣٦-١٤٢.

شاهداً على امتداد المدرسة الكُبراوية من شمس الدين الديلمي أصلاً، إلى الإصفيهذي، ثمّ إلى تلامذته في المجالين العربي والفارسي.

١-١ أبو بكر الموصلي الشيباني

مؤلف هذا الكتاب هو أبو بكر عبد الله بن عبد الله بن محمد الشيباني الموصلي دمشقي الشافعي. وُلد سنة أربع وثلاثين وسبعمائة في الموصل. وفيها درس الفقه على مذهب الإمام الشافعي، وحفظ الحاوي الصغير^(٩) والتنبيه^(١٠). ثم ارتحل إلى دمشق.

ومما جاء في ترجمته: أنه قديم من الموصل وهو شاب، فكان يتكسّب من الحياكة، ويشتغل في أثناء ذلك بالعلم، ويعاشر الصوفية، ولازم الشيخ قطب الدين^(١١) مدة، وأدمن النظر في الحديث فعلق بذهنه شيء كثيراً منه، ثم اشتهر أمره وصار له أتباع، وعلا ذكره وبعد صيته وتردد إليه الأكابر. وحجّ مراراً، ثم اتصل بالسلطان فبالغ في تعظيمه، وزاره في داره بالقدس، وصعد إليه إلى العلية، وأمر له بمال فأبى أن يقبله. وكان يكاتب السلطان بالشفاعات الحسنة فلا يرده. وكان الشهاب الزهري ممن يلازم حضور مجلسه، ويبالغ في تعظيمه. وكذلك الشيخ شمس الدين الصرخدي. وكان يتكلم على الناس فيبيد الفوائد العجيبة والنكت الغريبة.

وكان يُقرئ منازل السائرين، ويُلقّن الذكر،

(٩) كتاب الحاوي الصغير لنجم الدين عبد الغفار القزويني الشافعي (ت ٦٦٥هـ).

(١٠) كتاب التنبيه لأبي إسحاق إبراهيم القزويني الشيرازي (ت ٤٧٦هـ).

(١١) المقصود هنا قطب الدين رستم أبو محمد عبد الله بن محمد بن أيمن النوري الأديبي الإصفيهذي (ت ٧٨٠هـ)، شيخ الموصلي.

ويُلبسُ الخرقَةَ، وكان يعمل المواعيد ويحضر مجالسه الكبار. وكان نواب الشام يترددون إليه، ويمتثلون أمره. تُوفي رحمه الله تعالى بالقدس الشريف في ليلة الاثنين حادي عشر من شوال سنة سبع وتسعين وسبعمائة، ودُفن في تربة مأمّن الله (ماملا)^(١٢).

٢-١ آثار أبي بكر الموصليّ الشيبانيّ

من آثاره أنه أنشأ زاوية بالقبيبات في ميدان دمشق سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م. كما أنشأ زاوية في حيّ الأمنيّة في بيت المقدس، وأسس الطريقة الموصليّة ناظماً لها عقيدتها ومبادئ سلوكها. وقد ألّف الكثير من الكتب ما زال أغلبها مخطوطاً، منها:

آداب المريدين

الأنس والسلامة

الأنيسة المنتخبة من كلام أهل القلوب

الطاهرة النفيسة

التحذير من آراء الحنفيّة

تحفة الأبرار الحاوية لما في الأذكار

التقريب الأسنى في شرح الأسماء (مختصر

في شرح أسماء الله الحسنى)

الجواهر الثمينة لأصحاب العقول الرزينة

الحبالة في المثالث من اللغة بشرحه

درّة الغواص لصوم العامّ والخاص

الدرّة المضيّة في الوصايا الحكميّة

الراح والريحان

(١٢) راجع حول حياة أبي بكر الموصليّ، ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر ١: ٤٩٨. ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ١: ٤٧٥. مجير الدين العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٥٠٥. ونخصّص بإذن الله ترجمة موسّعة له عند نشر مجموع رسائله الصوفيّة.

الرسالة الحمويّة

ريحانة الجليس وعدوّه إبليس

السّترُ المُسبَلُ والتحذير من الزلل

سرّ السرّ (مختصر سرّ المحبّ والمحبوب)

سرّ المحبّ والمحبوب

سمط الصدور وحاوية النور

شبكة القناص لطلاب الإخلاص

شرح بانث سعاد

العلم والتعليم

غريب القرآن

فتوح الرحمن

الفتوح القدسيّ

فضائل الشّيخ عبد القادر الجيلانيّ

الفوائد في التّصوّف

في علم الأنواء والمطالع

اللمعة الموصليّة في معرفة اللغة العربيّة

ما كشف علّام الغيوب عن النفس من

العيوب

المائة حديث وحديث من المسانيد في الدعاء

محدّرة الإخوان ممّا يقع من قول أو فعل أو

اعتقاد يلزم منه الكفران

مختصر الحاوي الصغير في الفقه

مختصر في الفقه على الأربعة مذاهب

المرآة في أسماء قبائل رجال الحديث

المشرب الأصليّ الأهنى في شرح أسماء الله

الحسنى

المنتقى من كلام أهل التّقى

نظم السلوك

نفثة المصدر وتوجع المغدور لمن في قلبه

من أصحابه نور

نفحة الألباب

الياقوتة الفاخرة لطلاب الآخرة

وله مختصرات كثيرة في الأصول والنحو واللغة

والطب وغيرها^(١٣).

٣-١ مخطوط كتاب معرفة التوحيد

وقفنا على نسخة خطية واحدة من كتاب معرفة

التوحيد، تقع ضمن مجموع في مكتبة تشستر بيتي

برقم ٣٥١٩، يضم عدة مؤلفات منها، فرائد بحر

الفوائد، ورسالة في بيان المعجزات، والكافي

للكافي، واللمعة الموصليّة في معرفة اللغة

العربيّة لأبي بكر الموصلي. ويبدأ كتاب معرفة

التوحيد في الورقة ٥٢ وينتهي في الورقة ٦١/أ، وقد

استوعب المخطوط النصّ بتمامه. وقد كتبت بخط

النسخ، ونصّ في المجموع على اسم ناسخه، وهو

محمد بن محمد بن أحمد بن المحب المقدسي. وقد

نصّ على عنوان الكتاب في ورقة مستقلة «كتاب

في معرفة التوحيد». ونصّ في تختم المخطوط

على أنّ أي غلط يجده القارئ في الكتاب فممنه لا من

مؤلفه. وتظهر حواشي النسخة بعض التصحيحات

التي استدرکها الناسخ مما يعني أنه تمّ مراجعتها،

وإن لم تقابل على أصل منصوص عليه.

كتاب معرفة التوحيد

اتخذ الشيخ أبو بكر الموصليّ طريقاً مختلفاً

للحديث عن التوحيد في كتابه، يعبر عن هذا الطريق

(١٣) اعتمدنا في هذه البيبلوغرافيا على ما أورده محمد

ناصر أبو الفضل الموصليّ الشيبانيّ (٧٨٠-٨٥٨هـ)

(حفيد المؤلف) في فتوح الوهاب ودلائل الطلاب الى منازل

الاحباب (إيرلندا، مكتبة تشستر بيتي) مخطوط رقم

٣٣٩٤، ورقة ١٦٠.

الشبليّ حين سئل عن التوحيد من أحد معاصريه

«أخبرني عن توحيد مجرد بلسان حق مفرد. فقال

الشبليّ: ويحك! من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو

ملحد. ومن أشار إليه فهو ثنويّ. ومن أوماً إليه فهو

عابد وثن. ومن نطق فيه فهو جاهل. ومن سكت

عنه فهو غافل. ومن أوهم أنه إليه واصل فليس له

حاصل. ومن أوماً أنه قريب فهو منه بعيد. ومن

تواجد فيه فهو فاقد. وكلّ ما ميّزتموه بأوهامكم

وأدرکتموه بعقولكم في أتمّ معانيكم فهو مصروف،

مردود إليكم، محدث مصنوع مثلكم»^(١٤).

فبعد أن قدّم أبو بكر الموصليّ تعريفاً للتوحيد

أخذ يفصل الحديث في أنواع التوحيد، فهناك توحيد

الجمادات والحيوانات. وتوحيد الصبيان والمجانين

من أولاد المسلمين والكفرة جميعاً. وتوحيد عامّة

المسلمين.

وتوحيد المرید المبتدئ الطالب للحقيقة. ثمّ

فصل الحديث في معنى لا شيء في الوجود إلا الله،

واعتبر ذلك (من ترهات مجاهيل الصوفيّة). كما

قدّم إجابة عن سؤال كيف يُنال التوحيد؟ وأشرف

طرق الوصول إلى التوحيد، خاتماً نصّه بالتوحيد

الكامل وهو الجمع بين التوحيد والتعظيم. معتمداً

في ذلك كلّه على أعمال شمس الدين الديلميّ

(ت ٥٩٣هـ-١١٩٧م) ملخصاً لها.

مضامين كتاب معرفة التوحيد

- باب في توحيد الباري عز وجلّ.

فصل التوحيد في اللغة.

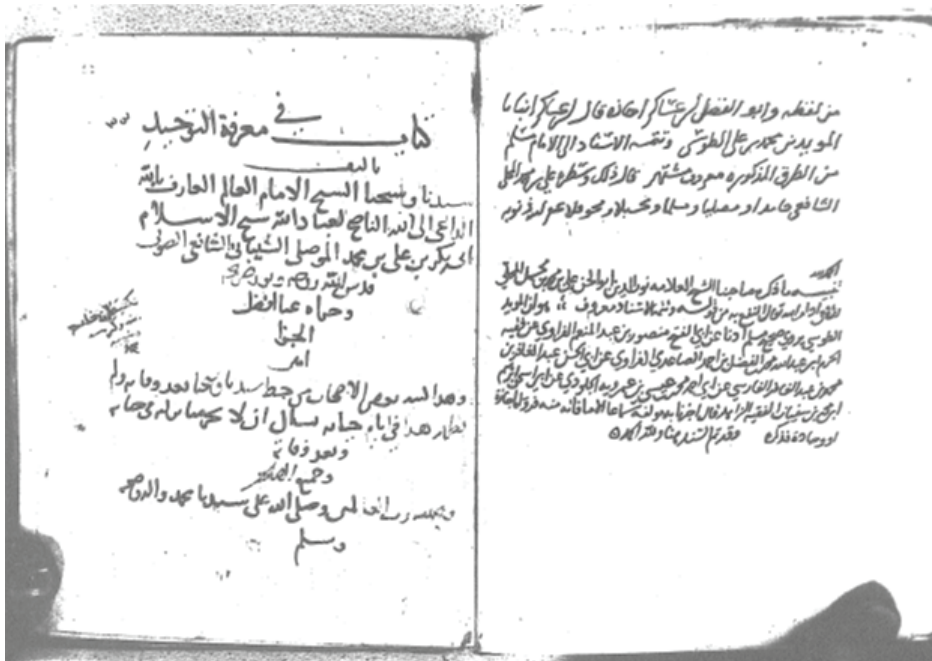
- فصل أنواع التوحيد.

(١٤) راجع عثمان يحيى في مقدّمة تحقيقه لكتاب التجليات

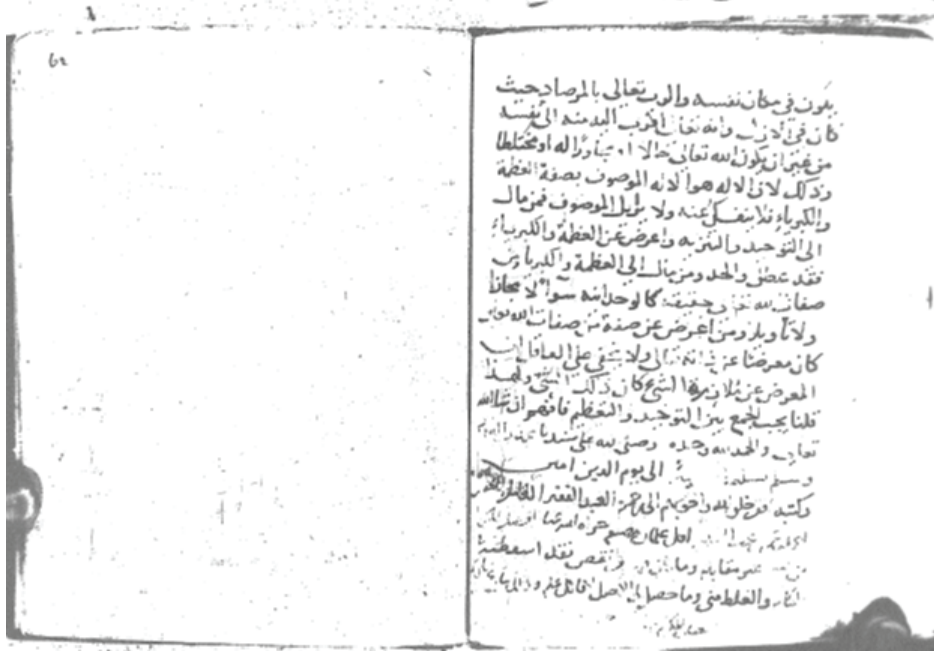
الإلهيّة لابن عربيّ، (القاهرة: الهيئة العامّة للكتاب،

١٩٦٩)، ٧٤.

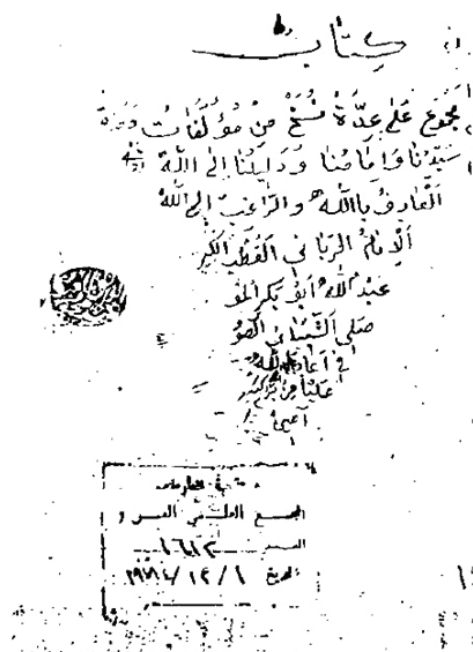
- توحيد الجمادات والحيوانات.
- توحيد الصبيان والمجانين من أولاد المسلمين والكفرة جميعاً.
- توحيد عامة المسلمين.
- توحيد المرید المبتدئ الطالب للحقيقة.
- مقامات الطريقة ألف مقام على ما ذهب إليه مشايخ الصوفيّة.
- مسألة في معنى لا شيء في الوجود إلا الله (من ترهات مجاهيل الصوفيّة).
- المشاهدة أوّل مقام الفناء (التوحيد الحقيقي).
- كيف يُنال التوحيد؟
- فصل في مشاهدة صفات الله.
- فصل من توحيدات عوالم الحقيقة (الفردانية).
- فصل من أشرف طرق الوصول إلى التّوحيدات الارتقاء في عالم الروحانيّات.
- فصل في كلمة التّوحيد وهي لا إله إلا الله.
- فصل في كلمة الله اسم الذات وله أسماء الصفات مثل الرحمن الرحيم.
- فصل كلمة لا إله إلا الله أولها نفي الربوبية عن غير الله ثم إثباتها له.
- فصل في شرح مقولة عبد القادر الجيليّ.
- فصل في كلمة هو اسم هيبة عظيمة عند أرباب المكاشفات.
- فصل التّوحيد الكامل هو الجمع بين التّوحيد والتعظيم.



مخطوط تشستريبيتي ٣٥١٩، ورقة ٥٢.



مخطوط تشستريتي ٣٥١٩، ورقة ٦١.



صورة لمجموع مؤلفات أبي بكر الموصلي في التصوف في المجمع العلمي العراقي ببغداد

اصطفاهم الله تَعَالَى بعد أنبيائه ورسله وسترهم في خبأ الغيرة الإلهية «أوليائي تَحْتِ خِبَائِي لَا يَعْرِفُهُمْ أَحَدٌ سِوَايَ»^(١٦). وأجلسهم على سرير السلطنة الأبدية من متابعة السيد المبين فوصلوا إلى الملك المتين (في مَقْعِدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ) [القمر: ٥٥].

الناس ينظرون إلى صورهم وقوالبهم ويحسبوهم أمثالهم، ولا يعلمون أنه «لا يُقَاسُ الملائكة بالحدادين»^(١٧). يقول الجاهل بهم: فُقدوا. وما فُقدوا، ولكن سميت أحوالهم فلم يُدركوا، وعلت رُبتبهم فلم يُلحقوا. لا يزال برهان عرفانهم في أرض الله تَعَالَى وسمائه أبداً، رضي الله عنهم.

وهو مَبُوبٌ على أبوابٍ

بابٌ في توحيد / الباري عز وجل

قال الله تَعَالَى: (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) [البقرة: ١٦٣] وقال تَعَالَى: (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)^(١٨) [طه: ١٤] وقال الله تَعَالَى: (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) [النحل: ٥١] وقال الله تَعَالَى: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرِزُقُكُمْ) [فاطر: ٣] وقال تَعَالَى: (خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ)^(١٩) [الزمر: ٦٢] وقال تَعَالَى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ

(١٦) قارن المرتضى الزبيدي، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٦)، ٥٧١: ١٢.

(١٧) مثلٌ يضرب في كلِّ شيئين لا يستويان، ومعناه لا يُقَاسُ الملائكة بالسجّانين. راجع محمد بنشريفية، تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب (المملكة المغربية: وزارة الثقافة، ٢٠٠٦)، ٤٦١. وفيصل مفتاح الحداد، مخطوطات في الأمثال العربية (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٨)، ٢٢: ١.

(١٨) تمام الآية (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) [طه: ١٤].

(١٩) تمام الآية (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۗ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

إِلَّا اللَّهُ) [محمد: ١٩].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كفى بالتَّوْحِيدِ عِبَادَةً وَكفى بِالْجَنَّةِ ثَوَابًا»^(٢٠).

فصل

التَّوْحِيدُ في اللغة عبارةٌ عن جعل الشيء واحداً. وهو أن تفرده عمّا يزاحمه، كأن يكون لشجرة واحدةً مثلاً أغصانٌ كثيرة، فقطعَ الكلَّ وترك واحداً، فيكون ذلك توحيداً لذلك الواحد المتروك.

وأما في عبارة العلماء اعتقادُ الوجدانية لله تَعَالَى، مع برهان العلم. وفي اصطلاح مشايخ الصُوفية بعد اعتقاد الوجدانية معرفة الوجدانية لله تَعَالَى، بمشاهدة القلب ببصائر الباطنة. وعلم التَّوْحِيدِ ما ثبت بالبرهان، وعينه ما ظهر بالوجدان، وحقه ما اختصَّ بالرحمن.

فصل

التَّوْحِيدُ أنواع

الأوّل وهو أدنى / التَّوْحِيدِ بلسان، وهو توحيدُ الجمادات والحيوانات التي لا عقل لها. قال الله تَعَالَى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) [الإسراء: ٤٤]. ومعنى توحيد هؤلاء أنها لازمت التَّوْحِيدِ بذواتها وصفاتها لله تَعَالَى، أما بذواتها فإنها انفصلت وامتازت عن ذات الله تَعَالَى، حيث غايرت ذات الله وتباعدت عن مشابهته في المكان والزمان والابتداء والانتها والازل والأبد. وأما أنها لازمت التَّوْحِيدِ بصفاتهما فإنها اتصفت بصفات

وَكَيْلٍ) [الزمر: ٦٢].

(٢٠) يُنسب القول في أغلب المصادر إلى أبي بكر الصديق، راجع الثعلبي الكشاف والبيان (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٨)، ٢١٥: ١.

مغايرة لصفات الله تَعَالَى، معاكسة لها غير مشابهة بها، فَإِنَّ الله تَعَالَى بجميع صفاته قديم لا أول لوجوده ولا آخر لبقائه وهو غني مستغن عن كل شيء، في وجوده وبقائه وجميع صفاته، حيُّ أزليُّ أبديُّ، يستحيلُ له الفناء، عالمٌ بجميع المعلومات، قادرٌ على جميع المقدورات، لم يزلْ عالماً ولا يزال كذلك، يستحيلُ له العجزُ والجهلُ بخلاف المخلوقات فإنها عاجزاتٌ كائناتٌ بعد أن لم تكن، محتاجاتٌ إلى صانع قادر خالق مُوجد لها، فكأنَّ كلَّ تلك المخلوقات موجوداتٌ لله تَعَالَى بذواتها وصفاتها على الوجه / الذي من وجهه ذكره. قائلاتٌ شاهداتٌ بلسان الحال: إِنَّ الله تَعَالَى واحدٌ أحدٌ فردٌ وترٌ، له الوجدانية الواجبة الفريضة، لا شريك له، ولا شبيهة ولا نظير له (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى: ١١].

وقال حكيم العرب [من الوافر]:

تأمل في نبات الأرض وانظر

إلى آثار ما صنع المليك^(٢١)

عيونٌ من لَجِينِ فاترات

وأحداقٌ هي الذهب السبيك

على قُضْبِ الزبرجد شاهدات

بأنَّ الله ليس له شريك

وقد نبه الله سبحانه وتعالى على ذلك في كثير من الآيات، قال تَعَالَى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) [الإسراء: ٤٤]. وقال تَعَالَى: (سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [الحديد: ١] وقال تَعَالَى: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) [الرعد: ١٥].

(٢١) الأبيات لأبي نواس، راجع أبا منصور الثعالبي، أحسن ما سمعت (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٨)، ١٠.

وأمثال تلك الآيات كثيرةٌ في القرآن، معنى هؤلاء شاهدات بوجدانية الله تَعَالَى قائلاتٌ بلسان الحال أن لا مثل ولا شبيهة ولا نظير لخالقها.

النوع الثاني من التوحيدَات توحيدُ الصبيان والمجانين من أولاد المسلمين والكفرة جميعاً، على ما قال النبي / صَلَّى الله عليه وسلّم: «كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو يُنصرانه»^(٢٢). ولأنَّ الكلَّ أقرّوا لله تَعَالَى بالربوبية عند سؤال الذرية^(٢٣) قال الله تَعَالَى: (اللَّسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ) [الأعراف: ١٧٢] وهم على ذلك الإقرار، ولم يوجد منهم الإنكار المعتبر فعدّوا الفطرة في الحديث المذكور هو التوحيد، يدلُّ على ذلك قول الله تَعَالَى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) [الروم: ٣٠] يعني خلق الناس على ذلك الدين الحنيفي.

النوع الثالث توحيدُ عامّة المسلمين الذين يعتقدون أن الله تَعَالَى واحدٌ في ذاته وفي صفاته لا ثاني له في الإلهية والربوبية والمعبودية، فردٌ في ذاته وجميع صفاته، حيُّ عالمٌ قادرٌ سميعٌ بصيرٌ متكلمٌ مُريد، وغير ذلك من الصفات، كما عُرف في كتب أصول الكلام، أثبتّها المتكلمون.

النوع الرابع: توحيدُ المرید المبتدئ الطالب للحقيقة بعد أن تمَّ له توحيد عامّة المسلمين على أحسن الوجوه وأنمّها، لكنّه لما أراد الوصول إلى الحقيقة واشتغل بطلب الحقّ تَعَالَى يحتاج إلى / تجريد توحيده وإخلاصه وتفريده في سائر

(٢٢) أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين، رقم ٦٥٩٩، ومُسلم، كتاب القدر، باب معنى كلِّ مولود يولد على الفطرة، رقم ٢٦٥٨.

(٢٣) (عند سؤال الذرية) في الأصل (وعند ذنبهم عند سؤال الذرية) وما أثبتناه من جواهر الأسرار للديلمي.

الصفات التي تُوجِبُ الشُّرْكَ في الطريقة نحو الإرادة والمحبة والرجوع إليه تَعَالَى، والحاجة والمراقبة له وأشباهاها، فلا يريد غير الله ولا يحبّ سواه ولا يحتاج ولا يرجع إلّا إليه، ولا يرغب إلّا فيه، ولا يعمل إلّا له، ولا يطلب إلّا إياه، ولا يرجو إلّا منه، ولا يخاف إلّا إياه.

هكذا إلى آخر مقامات الطريقة، ومقامات الطريقة على ما ذهب إليه مشايخ الصُوفِيَّة أَلْف، فمن أتى على المقامات كلّها ووحد الله في كلّ مقام فهو كَأَلْفِ مُوحَّد، دون حاله في التَّوْحِيد، ولهذا قال الله تَعَالَى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) [النحل: ١٢٠] واحدة، فلو وُزِنَ بِأَلْفِ مُوحَّد لرجح عليهم. كرجلٍ يَقْوَى على مقاومة أَلْفِ رجلٍ في الهِجَاء. وهذا التَّوْحِيد هو المرادُ في الخبر الإلهي. قال الله تَعَالَى: «المعرفة حصني والتَّوْحِيد حصاري فمن دخل حصني من باب حصاري أمنتُه من عذابي وعقابي»^(٢٤).

مسألة

اعلم أنّ التَّوْحِيد / على معنى لا شيء في الوجود إلّا هو الله تَعَالَى، وكلّ شيء سواه فإنّه ليس. وإنّما هو من تَرَهَات مجاهيل الصُوفِيَّة، والعاقِل لا يلتفتُ إلى مثل ذلك. إذ لا يخفى على العقلاء وجود الخلائق

(٢٤) يورد الديلمي، هذا الأثر مروياً عن علي بن أبي طالب في مسند الفردوس (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٠)، ٥: ٢٤٤. وينقل الشيخ محمود الكرديّ الخلوّتيّ (ت ١١٩٥هـ) هذا الحديث مع فقرة كاملة من كتاب عيون المعارف لشمس الدين الديلميّ تبدأ بقوله: «قال في عيون المعارف: وحقيقة الجذبة هي الخطفة من الله تعالى لمن يشاء من عباده، يخطفه إليه ويبلّغه إلى أعلى المقامات من عليّين» راجع إحياء القلوب شرح حكم سيدي محمود الكرديّ (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٥)، ١٠٩.

المختلفة من أنواع الجمادات والكواكب والجبال والبحار والإنس والجنّ والملائكة من أعاجيب الخلائق. فمن قال إنّهُ ليس في الوجود شيء من ذلك، فقد خرج عن حدِّ العقلاء. وإنّما التَّوْحِيد في عالم الفناء هو ما غلب عليه من تجلّي العظمة والكبرياء على قلب الموحَّد، فلا يشاهد شيئاً من غلبة تجلّي الحقّ سبحانه وتعالى، لا لعدم الأشياء وتلاشيها، كما إذا طلعت الشمس استتر نور الكواكب لغلبة نور الشمس، كذلك ينتفي مشاهدة الأشياء عند تجلّي صفة العظمة والكبرياء، فلا يشاهد إلّا نور الحقّ تَعَالَى.

فصل

تقصد أهل المشاهدة في عالم الفناء، وهو عالم الحقيقة، إن فُتِحَ له بابُ الحقيقة، وذلك بأن يصيرَ المشاهد بحال لا يُشاهد ببصيرة القلب إلّا الله تَعَالَى / ولا يجد إلّا إياه، وينسى كلّ شيء دون الله تَعَالَى، ولا يعلمه حتّى لا يرى نفسه أيضاً، ولا يجده. وهو أوّل مقام الفناء، وسببه تجلّي العظمة والكبرياء لهؤلاء المشايخ الصُوفِيَّة، وهم يُسمّونه عينَ الجَمْع وجمَع الجَمْع. ومن هنا قالوا: الصُوفيّ لا يجدُ رائحةَ التَّوْحِيد إلّا بالفناء. والتَّوْحِيد الحقيقي عند مشايخ الصُوفِيَّة أن لا يذكر شيئاً إلّا الله، ولا يعلم ولا يفهم سواه، فيحبّ ذاته لذاته، ويشكر ذاته لذاته. كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول في سجوده: «أعوذُ بعفوك من عقابك، وأعوذُ برضاك من سُخْطِكَ وأعوذُ بك منك»^(٢٥).

وهذا التَّوْحِيد إنّما يُنال بتفريد القلب عن

(٢٥) رواه البيهقيّ في شعب الإيمان (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٧)، ٣: ٣٨٥.

تعلقات الكونين، بعد تجريد القلب عما له بدُّ. وسببه دوام الذكر، وهو لا إله إلا الله، فإنَّ الذكر له تأثير عظيم. قال الله تَعَالَى: (وَأذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ) ^(٢٦) [الأنفال: ٤٥]. فبملازمة ذكر اللسان يصير القلب ذاكرًا ويتنور بنور الذكر، ويتوجه إلى الله بصدق النية ويأخذ الذكر عن لسانه / ولسانه عن قلبه، حتى تصير الكلمة راسخة في القلب مزيلة لحديث النفس، ثم يتجوهر القلب بنور الذكر، فينتفي بنفيه حجب تعلقات الكونين، ويثبت بإثباته سوى هذا المذكور في مرآة القلب، فيكاشف بالوحدانية الصوفيّة، فيقول في مقام الإحسان: رأى قلبي ربّي. فيتحف له علم التوحيد بعين اليقين. قال الجنيد ^(٢٧) رحمه الله: اعلم أن التوحيد مباينٌ لوجوده، ووجوده مفارقٌ لعلمه.

فصل

هذا الموحد ربّما يُشاهد في عوالم المشاهدات صفات الله تَعَالَى معدودة كاليدين والعينين والوجه أو الأيدي أو الأعين وأشباهاها، فلا يعتقد العدد والكثرة في الذات والصفات ولا التغير، فإنَّ اعتقد ذلك فقد أشرك بالله تَعَالَى، ولكن عليه أن يُقدّر شيخه في هذا المقام أن الله واحدٌ في الذات والصفات إلى أن ينكشف له وحدانية ذلك في عالم المُكاشفة فيعلم يقيناً أن العدد والكثرة والتغير / عائد ^(٢٨) إلى ذات الرائي وصفاته وآلات رؤيته، كمن ينظر في مرآتين أو أكثر يرى وجهه وجوهاً جمّة في كلّ مرآة

(٢٦) تمام الآية (وَأذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [الأنفال: ٤٥].

(٢٧) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغداديّ الخزاز، من مشاهير الصوفيّة، ت ٢٩٧ هـ (وقيل: ٢٩٨ هـ).

(٢٨) (عائد) في أ (عائداً).

وجهًا، وإنّه واحدٌ في الحقيقة، فإذا عرف ذلك في المشاهدة فالآن حصل له توحيدٌ كثيرٌ وكان هو الآن من كبار العرفاء.

فصل

هذا الموحد السائر إلى الله تَعَالَى ينبغي له أن ينظر بإحدى ^(٢٩) عيني السر إلى العظمة والجلال وبالأخرى إلى الكبرياء والجمال، كيلا يقع في بحر التعطيل والإلحاد فيحترق، ومن هنا قال الجنيد: إنَّ المبالغة في التوحيد إلحادٌ. يعني تجريد التوحيد عن وصفي الجلال والجمال تعطيلٌ وإلحادٌ، ووراء ذلك توحيدٌ لا يبلغه أحدٌ، وهو عظمة العظمة وكبرياء الكبرياء وعزّة العزّة وجلال الجلال وإلهية الإله وربوبية الربّ، ولا سبيل إليه للكشف والبيان والعلم والبرهان والرؤية والعيان، إلا أن يمن الله على عبده بجموده وفضله فيعطيه المعرفة الإجمالية دون التفصيلية، فإنَّ التفصيل محال، والإجمال ممكن. ومن هنا يتجلى معنى قوله تَعَالَى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى: ١١].

فصل

ومن توحيديات عوالم الحقيقة الفردانية، وهو كونه تَعَالَى مبايناً من خلقه، والخلق / مباينون منه بمباينة عنهم ذاتاً وصفة، ومنها أنه تَعَالَى (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) [الإخلاص: ٣] وَلَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ^(٣٠)، ولم يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ^(٣١) (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ

(٢٩) (بإحدى) في أ (بأحد).

(٣٠) إشارة إلى الآية (وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا) [الجن: ٣].

(٣١) إشارة إلى الآية (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصُرَ بِهِ وَأَسْمِعُ مَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ

كُفُورًا أَحَدٌ) [الإخلاص: ٤]. كل ذلك فردانية في عوالم
الوحدانيات.

ومن التوحيديات نفي المثل والشبيه، ويسمى
تنزيهاً، قال الله تَعَالَى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى: ١١]. ومن ذلك نفي الشريك في الملك
والإلهية والربوبية، وذلك من عالم الاستفناء. ومن ذلك
نفي العيوب، ويسمى ذلك تقديساً وتسبيحاً.

فصل

ومن أشرف طرق الوصول إلى هذه التوحيديات
وأعلىها هو الارتقاء في عالم الروحانيات، فإنه
إذا بلغ ذلك غاية البلوغ تلطف نفس العبد غاية
التلطف، فبتلك اللطافة يحصل له ارتقاء آخر إلى
غاية قرب الوحدانية الفردانية والقدس والسبحان
معاينة.

والآيات الدالة على الوحدانية كثيرة، قال الله
تَعَالَى: (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ) [البقرة: ١٦٣] وقوله: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)
توحيد. وقوله: (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) توحيد آخر. وعلى
هذا الوجه كل ما في القرآن (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) وقوله:
(إِلَهُ وَاحِدٌ) و (هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) [الزمر: ٤].

فصل

في كلمة / التوحيد، وهي لا إله إلا الله، وهي
أفضل الذكر، لأن الله تَعَالَى بها يدفع الكفر والشرك
ظاهراً ومعنى، فإن صورة الشرك إنما تنتفي
بصورة هذه الكلمة، وهي الأصنام. وكذلك الشرك

وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) [الكهف: ٢٦].

المعنوي، وهي الآلهة التي تدعى الربوبية من النفس
والهوى والشهوة. والشيطان إنما ينتفي بمعنى
هذه الكلمة. قال الله تَعَالَى: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ
هُوَ) [الجاثية: ٢٣]. ولذلك أمر الله تَعَالَى بعلم
هذه الكلمة، حيث قال: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)
[محمد: ١٩] وقال تَعَالَى: (فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ
اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) [هود: ١٤]. وعليها يقاتل
الناس، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَرْتُ أَنْ أُقَاتَلَ
النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٣٢).

اعلم أن كلمة لا إله إلا الله تدل على وجود الباري
تَعَالَى، فيبرأ قائلها من تعطيل الذات، وتدل على
وحدانية الله تَعَالَى، فيبرأ قائلها من الشرك، وتدل
على تنزهه^(٣٣) عن كونه جوهراً أو عرضاً فيبرأ من
التشبيه والتجسيم، وتدل على إبداعه كل ما سواه
باختياره. قال الله تَعَالَى: (وَرَبُّكَ ۙ خَلَقَ مَا
يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) [القصص: ٦٨]. فيبرأ من القول
بتدبير الطبائع أو الكواكب أو الملائكة. وتدل على
طهارة قلب الموحد فيبرأ من نجاسة الشرك. قال
الله تَعَالَى: (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) [التوبة: ٢٨].
والشرك سبب لخراب العالم. قال الله تَعَالَى: (تَكَادُ
السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ
هَدًا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا) [مريم: ٩٠-٩١]. وإذا
كان الشرك نجاسة معنوية وسبباً لخراب العالم
وجب أن يكون التوحيد طهارة وسبباً لطهارة
القلب وعمارة العالم.

(٣٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب (فإن تأبوا
وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) [التوبة: ٥]،
رقم ٣٥، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس،
حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، رقم ٣٦.

(٣٣) تنزهه في أ (تنزهه).

(٣٤) (وربك) في أ (والله).

فصل

يصحُّ (٣٥).

وكما أنّ الاستعاذَةَ مقدّمةً على القراءة فكذا هاهنا. وعن هذا قال المحققون النصف الأوّل من هذه الكلمة تنظيف الأسرار وتنزيهها والنصف الثاني جلاء الأنوار عن حضرة الملك الجبار، والنصف الأوّل فناء الثاني بقاء، فالنصف الأوّل الانفصال / عمّا سوى الحقّ سبحانه، والثاني اتصالٌ بالحقّ تَعَالَى، والنصف الأوّل إشارة إلى قوله تَعَالَى: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ) [الذاريات: ٥٠] جميعاً. والثاني إشارة إلى قوله تَعَالَى: (ثُمَّ دَرَاهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) [الأنعام: ٩١].

فصل

قال الشَّيْخُ عبد القادر الجيلي^(٣٦) رحمة الله عليه: إنّما أمرنا المرید بالتجريد عن المال والمثال، لئلاّ يتقل في حال سلوكه إلى مقصده^(٣٧)، إذ أقسامه معدّة له، لا بدّ من وصولها إليه، لكن حُبس عنه في حال سيره وسلوكه، لتمكّنه قطع فيافي الطبع ومفاوز الهوى، لأنّها أثقال وأحمال، فأزيلت عنه، لئلاّ يتقله ويعوقه عن مقصده ومطلبه إلى حين الوصول إلى غيبة الفناء، وهو الوصول إلى قرب

كلمة الله اسمُ الذات، وله أسماء الصفات مثل الرحمن الرحيم السلام وغيرها. والتَّوْحِيدُ إنّما يصحُّ باسم الذات فمن قال لا إلهَ إِلَّا اللَّهُ يُسَمَّى مُسْلِمًا، وقد أقرّ بوجود الذات ويجب أن يقرّ بالصفات فلا ينفك عنه. ودليل ذلك قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فمن قال: لا إلهَ إِلَّا الرحمنُ أو لا إلهَ إِلَّا الرحيمُ، وغير ذلك لا يكون مُسْلِمًا، حتّى يقول: لا إلهَ إِلَّا اللَّهُ. لأنّ الله تفرّد بهذا الاسم دون خلقه، بخلاف سائر الأسماء، فإنّه يجوز أن يُسَمَّى الرجل عالمًا ورحيمًا وكريمًا، على معاني هذه الأسماء، ولا يجوز أن يُسَمَّى الرجل الله، فإنّه حقّ الله تَعَالَى.

وهو اسم الذات وخاصّ / به عزّ وجلّ. وحظُّ العبادِ في أسماء الصفات، فمن طلب الرحمة من الله أو طلب الكرم أو الجود يقول: يا رحيم، يا كريم، يا جواد. وأمّا اسم الله فإنّه للوحدانيّة، وهو اسم الذات، وسائر الصفات داخل في هذا الاسم ولا يحتاج هذا إلى اسم سواه.

فصل

كلمة لا إلهَ إِلَّا اللَّهُ أوّلها نفْيُ الربوبيّة عن غير الله تَعَالَى، ثمّ إثباتها له تَعَالَى بقوله: (لا إلهَ إِلَّا) إخراجٌ لكلّ ما سوى الله، ثمّ حصر فيه سلطان (لا إلهَ إِلَّا اللَّهُ) أشرق نوره إشراقًا تامًّا وكمل لمعانه فيه كما لا ظاهراً، فيكون (لا إلهَ) نفْي ما سوى الله تَعَالَى تطهيراً للقلب عن الأغيار، ويكون إثبات (إِلَّا اللَّهُ) توحيداً في قلب خالٍ. كما أنّ الطهارة مقدّمة على الصلاة، إذ الصلاة بلا طهارة لا تصحّ. كذلك التَّوْحِيدُ بغير خلوّ القلب عمّا سوى الله تَعَالَى لا

(٣٥) قارن محمّد ناصر أبا الفضل الموصليّ الشيبانيّ (٧٨٠-٨٥٨هـ) (حفيد المؤلف) فتوح الوهاب ودلائل الطلاب الى منازل الاحباب (إيرلندا، مكتبة تشستر بيتي) مخطوط رقم ٣٣٩٤، ورقة ١٠٨.

(٣٦) المشار إليه عبد القادر الجيلانيّ الصوفيّ الفقيه الحنبليّ البغداديّ (ت. ٥٦١هـ / ١١٦٥م).

(٣٧) قريب من هذا المعنى ما قاله الشيخ عبد القادر الجيلانيّ مخاطباً به الحلاج «يَا حَلَّاجُ، لَا يَدْخُلُ هَذَا الْبَابَ إِلَّا مَنْ تَجَرَّدَ عَنْ صِفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، وَفَنِيَ عَنْ سَمَاتِ الْأَدَمِيَّةِ فَمَاتَ حُبًّا وَذَابَ عَشَقًا، وَأَسْلَمَ رُوحَهُ لَدَى الْبَابِ، وَجَادَ بِنَفْسِهِ عِنْدَ الْحِجَابِ» راجع ديوان عبد القادر الجيلانيّ (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٩)، ٢٧٢.

الحق عز وجلّ والمعرفة به وحصول الأسرار والعلوم الدينية والاستغراق في تموج بحار الأنوار، وحينئذ لا يضرّه ظلمة الطبع. ولو زالت ظلمة الطبع عن الأدمي لالتحق بالملائكة، وانخرم نظام العالم، وبطلت الحكمة، فبقي الطبع فيه لاستيفاء الأقسام، فيكون ذلك وظائفاً لا أصلياً. قال النبي صلى الله عليه وسلم: حُبب إليّ من دنياكم ثلاث. الحديث. فلما أفني النبي صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وما فيها حين اعتزل / رُدّ إليه أقسامه المحبوسة عنه في حال سيره إلى ربه عز وجل، فاستوفاهها موافقة لربه عز وجل وممتتلاً لأمره عز وعلا. وعمت رحمته، وشمل فضله لأنبيائه وأوليائه. وهكذا الولي في هذا الباب يُردّ إليه أقسامه وحظوظه بعد الفناء مع حفظ الحدود، فهو الرجوع من النهاية إلى البداية^(٣٨).

فصل

في كلمة هو، هذا اسم هيبه عظيمة عند أرباب المكاشفات، وله شرفٌ عظيمٌ وجلالة تامّة، وهو ينبئ عن كنه حقيقته المخصوصة المبرّاة عن جميع جهات الكثرة. فهذه اللفظة لوصولها إلى كنه ما يُمكن من العبارة، فإنّه أقرب العبارات إلى الحقيقة، يجب أن يكون أشرف الألفاظ، وذلك لأنّ أسماء الصفات دالّة على الصفات، والصفات لا تُعرف إلاّ بالإضافة إلى المخلوقات. فالقدرة مثلاً هي الصفة التي باعتبارها يصحّ الإيجاد، والعلم هو الصفة التي باعتبارها يصحّ الإيقان. فهذه الأسماء إنّما تُعرف مع معرفة المخلوقات، وبقدر ما يصير العقل مشغولاً بمعرفة العبر يصير مصروفاً عن الاستغراق

(٣٨) ورد النصّ كاملاً في كتاب الشيخ عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠١٧)، ٨٦-٨٧.

مع معرفة الحقّ.

وأما لفظ (هو) فإنّه يدلّ عليه من حيث هو، ولا حاجة في معرفته إلى الالتفات إلى اعتبار / حال غيره، فلفظ (هو) توصلك إلى الحقّ فتقطع عمّا سوى الله تعالى. وسائر أسماء الصفات ليس كذلك، فكان هو أشرف، ولأنّه لفظ دالّ على الموصوف، والموصوف أشرف من الصفة.

وأما كلمة الله، قال بعضهم: مَنْ عَرَفَ إِلَهِيَّتَهُ نَسِيَ صَوْلَتَهُ، كما أنّ مَنْ عَرَفَ رَحْمَتَهُ نَسِيَ زَلَّتَهُ. قال الشبلي^(٣٩): ما قال أحدُ الله سوى الله. وإنّ مَنْ قاله قاله بحظّه، وأنّي تُدرك الحقائق بالحفظ. وقال بعضهم من قال الله وقلبه غافل في الدارين مقتته الله. وعن أبي سعيد الخزاز^(٤٠) قال: رأيت بعض العرفاء فقلت: ما غاية هذا الأمر؟ قال: الله. فقلت: ما معنى الله؟ قال: تقول اللهم دُنّي عليك وثبّنتني عندك ولا تجعلني ممن يرضى بجمع ما دونك عوضاً منك^(٤١).

فصل

اعلم أنّ التّوحيد الكامل هو الجمعُ بين التّوحيد والتّعظيم^(٤٢)، فإنّ التّوحيد بلا تعظيم تعطيل، والتّعظيم بلا توحيد تجسيم، فمن اقتصر على

(٣٩) أبو بكر دُلف بن جَحْدَر الشَّبليّ، وقيل في اسمه ونسبه غير ذلك، من مشاهير الصوفيّة، عاصر الجُنيد والحلاج، ت ٣٣٤ هـ.

(٤٠) أبو محمّد عبد الله بن محمّد الخزاز، من أهل الرّيّ، كان من المشايخ المتورّعين، ت قيل ٣١٠ هـ.

(٤١) ورد النصّ كاملاً في كتاب الفخر الرازيّ، لوايح البيّنات شرح أسماء الله تعالى والصفات (القاهرة: المطبعة الشريفة، ١٩٠٥)، ٩٢.

(٤٢) (هو الجمعُ بين والتّعظيم) في أ (هو الجمعُ بين التّوحيد الكامل، وهو الجمعُ بين التّوحيد والتّعظيم).

التَّوْحِيدِ مِنْ غَيْرِ تَعْظِيمٍ فَقَدْ أَلْحَدَ، وَمِنْ قَنَعٍ
بِالتَّعْظِيمِ عَنِ التَّوْحِيدِ فَقَدْ جَسَّمُ وَأَشْرَكَ. وَدَلِيلُ
ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ * وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ) [الشورى: ١١]. فَإِنَّ هَذَا دَلِيلٌ عَظِيمٌ عَلَى
تَنْزِيهِ الْبَارِئِ تَعَالَى، وَعَدَمِ مِشَابَهَتِهِ عَمَّا سِوَاهُ، لِأَنَّ
كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى / إِمَّا رُوحٌ أَوْ رُوحَانِيٌّ، وَإِمَّا
جِسْمٌ أَوْ جِسْمَانِيٌّ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَنْزَهُ عَنِ جَمِيعِ ذَلِكَ.
وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَوْلَاهَا تَنْزِيهُهُ وَحِدَانِيَّةً، وَأَخْرَاهَا
تَعْظِيمُ إِثْبَاتٍ، فَمِنْ جَمْعٍ بَيْنَهُمَا بَأَنَّ أُثْبِتَ لِلَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ مَا أُثْبِتَ لِنَفْسِهِ وَنَزَّهَهُ^(٤٣) عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ
تَعَالَى كَمَا نَزَّهَ نَفْسَهُ تَعَالَى، وَأُثْبِتَ غَيْرَ مِمَّتَلٍّ، وَنَزَّهَ
غَيْرَ مِعْطَلٍّ، فَقَدْ وَجَدَ وَأَصَابَ الْحَقُّ. وَمِنْ انْحِرَافٍ
فِي التَنْزِيهِ حَتَّى عَطَّلَ وَفِي الْإِثْبَاتِ عَنِ شَبْهِهِ^(٤٤) وَمِثْلِهِ،
فَقَدْ أَخْطَأَ^(٤٥). وَلِهَذَا قُلْنَا: الْجَمْعُ بَيْنَ أَوَّلِ الْآيَةِ
وَأَخْرَاهَا وَاجِبٌ، فَإِنَّ ذَلِكَ تَوْحِيدٌ مَقْرُونٌ بِالتَّعْظِيمِ
وَالْإِثْبَاتِ، وَذَلِكَ حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ.

فصل

المراد بالتَّوْحِيدِ أَنَّهُ تَعَالَى بِذَاتِهِ وَاحِدٌ وَالْإِثْنَيْنِيَّةِ
لَهُ مُحَالٌ، بَلِ اللَّهُ تَعَالَى أَوْحَدٌ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ وَأَفْرَدٌ
مِنْ كُلِّ فَرْدٍ، لَا مِثْلَ لَهُ تَعَالَى، وَلَا شَبْهَ وَلَا نَظِيرَ،
لَا يَشْبَهُ ذَاتَهُ شَيْءٌ مَاءً، وَلَا يَشْبَهُهُ شَيْءٌ^(٤٦). وَأَمَّا
التَّعْظِيمُ فَالمراد بعظمة الله تَعَالَى وكبريائه^(٤٧) أَنَّهُ
تَعَالَى قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْبُعْدُ لَهُ تَعَالَى عَنِ كُلِّ

(٤٣) (نزهه) في أ (نزهه).

(٤٤) (عن شبهه) في الإشارات الإلهية (حتى شبهه).

(٤٥) قارن نجم الدين الطوفي، الإشارات الإلهية إلى المباحث
الأصولية (القاهرة: الفاروق الحديثة، ٢٠٠٢)، ٣: ٢٢٢.

(٤٦) (ذاته شيء ماء، ولا يشبهه شيء) في أ (ذاته شيئاً ماء،
ولا يشبهه شيء).

(٤٧) (تعالى وكبريائه) في أ (كبريائه تعالى) وما أثبتناه من
كتاب الجمع بين التوحيد والتعظيم للدليمي.

شَيْءٍ مُحَالٍ. فِي إِشَارَةِ أُخْرَى الْمُرَادُ بِعِظْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى
وَكِبْرِيَائِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مَطَّلَعٌ عَلَى الْكُلِّ فَحَيْثُ مَا
يَخَاطَبُ يُسْمَعُ، وَإِنَّ الطَّالِبَ إِذَا طَلَبَهُ تَعَالَى فَحَيْثُ
مَا طَلَبَهُ وَجَدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمِشِي، بَلِ الطَّالِبُ /
يَكُونُ فِي مَكَانِ نَفْسِهِ، وَالرَّبُّ تَعَالَى بِالْمُرْصَادِ،
حَيْثُ كَانَ فِي الْأَزْلِ. وَإِنَّهُ تَعَالَى أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْهُ إِلَى
نَفْسِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى حَالاً أَوْ مَجَاوِزاً
لَهُ أَوْ مَخْتَلِطاً، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْإِلَهَ الْمَوْصُوفُ
بِصِفَةِ الْعِظْمَةِ وَالْكَبْرِيَاءِ، فَلَا يَنْفَكُ عَنْهُ وَلَا يَزِيلُ
الْمَوْصُوفُ، فَمَنْ مَالَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالتَّزْيِينِ وَأَعْرَضَ
عَنِ الْعِظْمَةِ وَالْكَبْرِيَاءِ فَقَدْ عَطَّلَ وَأَلْحَدَ، وَمَنْ مَالَ إِلَى
الْعِظْمَةِ وَالْكَبْرِيَاءِ [فَقَدْ جَسَّمُ] لِأَنَّ الْعِظْمَةَ مِنْ^(٤٨)
صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى حَقِيقَةً كَالْوَحْدَانِيَّةِ سِوَاءَ لَا مَجَازاً
وَلَا تَأْوِيلًا، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ صِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى
كَانَ مَعْرِضًا عَنِ ذَاتِهِ تَعَالَى.

وَلَا يَخْفَى عَلَى الْعَاقِلِ أَنَّ الْمُعْرِضَ عَنِ مَلَازِمَةِ
الشَّيْءِ كَانَ ذَلِكَ الشَّيْءِ، وَلِهَذَا قُلْنَا: يَجِبُ الْجَمْعُ بَيْنَ
التَّوْحِيدِ وَالتَّعْظِيمِ، فَافْهَمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد
وأله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين
آمين.

(٤٨) (فقد جَسَّمُ لِأَنَّ الْعِظْمَةَ مِنْ) فِي أ (وَمِنْ) وَمَا أُثْبِتْنَاهُ
مِنْ كِتَابِ الْجَمْعِ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالتَّعْظِيمِ لِلدِّلِمِيِّ.

المصادر والمراجع

- عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٧).
- الفخر الرازي، لوامع البيئات شرح أسماء الله تعالى والصفات (القاهرة: المطبعة الشرقية، ١٩٠٥).
- فيصل مفتاح الحدّاد، مخطوطات في الأمثال العربية (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٨).
- محمّد بنشريفية، تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب (المملكة المغربية: وزارة الثقافة، ٢٠٠٦).
- محمّد ناصر أبا الفضل الموصليّ الشيبانيّ، فتوح الوهاب ودلائل الطلاب الى منازل الاحباب (إيرلندا، مكتبة تشستر بيتي) مخطوط رقم ٣٣٩٤.
- محمود الكرديّ الخلوتيّ، إحياء القلوب شرح حكم سيدي محمود الكرديّ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥).
- المرتضى الزبيديّ، إتحاف السادة المتّقين بشرح إحياء علوم الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٦).
- المرتضى الزبيديّ، المعجم المختصّ (بيروت: دار البشائر الإسلاميّة، ٢٠٠٦).
- نجم الدين الطوفيّ، الإشارات الإلهيّة إلى المباحث الأصوليّة (القاهرة: الفاروق الحديثة، ٢٠٠٢).
- أبو بكر العامريّ الحرّضيّ، غربال الزمان في وفيات الأعيان (دمشق: مطبعة زيد بن ثابت، ١٩٨٥).
- أبو بكر الموصليّ الشيبانيّ، المشرب الأصفي والأهني في شرح أسماء الله الحسنى، مخطوط ٢٤٧/Leipzig ٦.
- أبو منصور الثعالبيّ، أحسن ما سمعت (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٨).
- البيهقيّ، شُعب الإيمان (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٧).
- الثعلبيّ الكشف والبيان (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٨)، ١: ٢١٥.
- خالد محمّد عبده، آثار شمس الدين الديلميّ المخطوطة، مكتبة الإسكندريّة، مجلة علوم المخطوط، ١٤، ٢٠١٨، عبد الملك الديلميّ في الدراسات الاستشراقية وشذرات من تفسيره الصوّفيّ ٥: (٢٠٢٠) ٦٨، ١ - Al-Abhath ٤٦.
- الديلميّ، مسند الفردوس (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٠).
- عبد القادر الجيلانيّ، ديوان عبد القادر الجيلانيّ (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٩).